اميل برهييه وكتابه الآخير فى الفلسفة المعاصرة

للدكتور نجيب بلدى

الاستاذ أميل برهييه أستاذ الفلسفة السابق بجامعة باريس وعضو المجمع العلمى الفرنسى ، ومن أقطاب الفلسفة وتاريخها . كان أول أستاذ للفلسفة بالجامعة المصرية ، عند افتتاحها عام ١٩٢٥ ، ثم جاءها عام ١٩٣١ . وكان له أعظم الأثر فى توجيه أول فوج من الطلاب المصريين فى الفلسفة فى مصر ، وفى فرنسا ثم غرس فى نفوسهم حب الفلسفة ، وأوقد فيهم الحماسة لموضوعاتها ومنهجها ومشكلاتها .

توفى هذا الرجل فى سن الخامسة والسبعين فى أوائل عام ١٩٥٢ . وكان حتى نهاية حياته شابا فى تفكيره ، حيا فى أحاديثه ، قويا فى دفاعه عن المثل العليا ، متحمسا للقيم الروحية ، عنيفا فى معارضته لاعدائها ، مستعدا للبحث عن الحقيقة واتخاذ شتى المناهج فى ذلك ، مضحيا بما اعتاده الفلاسفة من طرق ، دائما على اختيار أحدثها وأبعدها عن المألوف حيثما وجد ضرورة لذلك . ولم يكن من بين الفلاسفة الفرنسيين من استطاع مثله مسايرة التيار العنيف الذى أحدثته فى العشرين سنة الاخيرة مختلف النظريات الفلسفية والعلمية الجديدة ، بل كان له السبق أحيانا على المفكرين الشبان أنفسهم فى التنبؤ عن خطر منهج جديد أو ثمرة بحث طريف .

وقد رأينا أن نقول كلمة فى مجلة كلية الآداب عن آخر كتاب[1] نشر له قبل وفاته ، يقص علينا فيه التغير العميق الذى اعترى الفكر الاوروبى المعاصر . والتغير ظاهر له فى موضوع الفلسفة ، فى منهجها ، وفى مختلف المواقف التى انتهت اليها .

Emile Bréhier : *Les Thèmes Actuels de la Philosophie (Presses Universitaires de France, Paris 1951).*

وأغرب ماتظهره دراسة الفلسفة المعاصرة لهو مع تقارب أوجه النظر بين المحدثين والقدماء ، تباعد مواقف المعاصرين عن أولئك وهؤلاء : نعم قد اتخذ ديكارت « الانسان أو الأنا » نقطة بداية فى الفلسفة ، مخالفا فى ذلك برنامج الفلسفة القديمة والوسيطة التى أرجعت خصائص الانسان وطبيعته الى مبادىء الكون العامة والاساسية . الا أن ديكارت رأى فى الانسان كائنا حائزا على سلطة فكرية عظيمة وعلى قوانين ثابتة تجعل منه مركز الكون وأساس الموضوعات والعلوم معا . فكأن مبادىء الكون التى بحث عنها القدماء والوسيطون ، قد انتقلت عند المحدثين الى العقل الانسانى ، فطبعت عليه علامات الحقيقة الموضوعية طبعا نهائيا .

أما منهج المحدثين وخاصة ديكارت ، فهو بلا شك ابتكار طريف لم يعرفه القدماء ولا رجال العصور الوسطى : ولكنه مع ذلك ليس الا مظهر اكتمال العقل الواثق بنفسه ، الشاعر بتبعته ، المؤمن بثبات بنيانه وتركيبه . فاكتشافه متسق مع النظام الثابت الذى أجمع القدماء والمحدثون على أنه أساس العلم والمعرفة .

نعم ، قد انتهى الفلاسفة المحدثون وديكارت فى طليعتهم الى مواقف فلسفية تخالف نظريات الاقدمين أشد مخالفة . وأبلغ مظهر لهذا الاختلاف تلك النظريات التى أطلق عليها اسم « المثالية » ايديالزم (idéalisme) : بعضها يرجع العالم الى معانى النفس الفطرية ، والبعض الآخر يفترض الموضوعات ثمرة تركيب العقل لمادة خام لايدرى عن أصلها شيئا ، والبعض الاخير يرى فيها ثمرة تقدم العقل الانسانى وتطوره المطرد . الا أنه مهما كان من أمر هذا الاختلاف فان مواقف الفلسفة الحديثة من ديكارت حتى هيجل ، فيها دلالة واضحة ، على ايمان بالعقل الرشيد ، وبقوته وسيادته ، هذا العقل الذى رأى فيه بعض الاقدمين ، غاية العالم العليا ، والبعض الآخر مبدأ الحياة السارية فى الكون بأكمله .

أما المعاصرون، فجاءوا يتلمسون لذلك العقل المنظم المشروع سبيلا، فلم يجدوه . أما الانسان ، ففى نظرهم ، غير ذلك الذى تكلم عنه ديكارت .

يجمع المعاصرون على دراسة الانسان فى وجوده الواقعى ، وينكرون ادعاء الذين رأوا فى العقل سلطة قائمة بذاتها ، حاكمة فى الانسان والعالم . وليس الانسان كما تصور ديكارت كائنا مفكرا حصر تفكيره فى ذاته ، وأغلق على نفسه نوافذ العالم اغلاقا محكما . كلا ! ان الانسان فى صلة مستمرة «[1]» ، فى صلة مع العالم المادى : جذور الانسان منبعثة منه ، متأصلة فيه . فى صلة مع البدن. فلاقوانين خاصة بالبدن وحده، ولا بالنفس وحدها ، وانما حياة مشتركة . فى صلة مع الغير : حتى أن المعتكف فى مخدعه لمدين للآخرين بحياته المادية ، وموضوعات فكره وعلمه .

أنظر لفيلسوف مثل هوسرل (Husserl) تجده قد رفض ارجاع المعرفة الى فعل النفس وحدها أو الى فعل الموضوع وحده ، واعتبر المعرفة حياة مشتركة ، واعتبر الذات مركز علاقات فى تغير مستمر لاتخرج النفس، من احداها حتى تدخل فى أخرى .

أنظر الى جبريل مارسيل . لم يفهم لأنا معنى مالم يثبت أمامها «أنت» ولم يقرر لأنا وجودا الا لانها قابلة لان تصبح «أنت» — أنظر الى الفلاسفة الوجوديين ، وفى مقدمتهم هيديجر ، تجدهم قد نبذوا الجوهر المفكر ، المنفصل عن الجسم فى تفكيره . بل قد نبذوا الجوهر اطلاقا ، وأحلوا محله وجودا هو أشبه الاشياء بالحقل المغنطيسى ، مجال تأثر وتأثير «[2]» . درسوا الانسان كائنا « ملقى فى العالم » «[3]» كما قال بسكال ، فى مغامرات مستمرة ، لايخلص منها الا ليلقى نفسه وجها لوجه أمام الموت .

لو انتقلنا الآن للمنهج ، لحظنا أنه لاسبيل لمعاصر أن يتخذ سنن راتبه متناسقة ، كما هو الامر عند ديكارت ؛ وان حل المشكلات لايفترض عناصر بسيطة يركبها العقل تركيبا منتظما . بل لابد من بحث كل مشكلة

(1) *Thêmes* p. 18
(2) p. 105
(3) p. 58.

على حدة ، فى ضوء المبادىء الصالحة لها ، دون سواها • وأمر هذا بين فى دراسة المعاصرين لمشكلات النفس أو المجتمع • وفى هذا الصدد يقارن الاستاذ برهييه بين منهج رجل مثل دوركهايم فى دراسة الظواهر الاجتماعية وطريقة عالم معاصر مثل ليفى ستروس : فبينما كان منهج دوركهايم استدلاليا تركيبيا ، نجد ليفى ستروس يعتمد فى الاغلب على ملاحظات مباشرة. ويقف طويلا فى مرحلة وصف الوقائع ؛ دون الاستعجال الى تفسيرها. أو الى ارجاعها لمبادىء عامة ــ ولا نجد عند المعاصرين أيضا تلك الروح الطموحة التى نلحظها عند هيجل ، ولا الثقة الوطيدة فى المستقبل ؛ ولا ارادة توجيه السياسة أو الاقتصاد حسب نهج عقلى عام • ان نظرة الفيلسوف المعاصر ضيقة محدودة ، غير أنها فى بعض الاحيان نور وهاج يلقيه على الانسان وعلى النطاق الضيق القائم حوله •

وليس هناك أدل على اتخاذ طريق جديد ، من اختفاء عدة دراسات كانت شائعة عند المحدثين : فاختفى التحليل الذاتى البحت للنفس، وحل محله وصف للانسان فى اتصاله بالبدن والغير والله ؛ ولنقارن فى هذا الصدد بين يوميات رجل مثل أميل (Amiel) عاش أثناء القرن التاسع عشر ؛ ويوميات المعاصر جبريل مارسيل «(1)» • قد اختفى أيضا ما سمى منذ كنط « نظرية المعرفة » . أى محاولة تحديد مبادىء أولية توجه العقل فى معرفة أى موضوع • ثم اختفت أخيرا جميع المحاولات العامة للتفسير . كالنظرية الترابطية associationisme التى ترجو اقامة العالم على وقائع نفسية تافهة كالاحساس أ وتداعى الخواطر «(2)»

الا أن أهم مانلحظه هو اختفاء المثالية « ايديالزم » فى مختلف صورها• وكان من بين آخر ممثليها الاستاذ ليون براشفيج صديق برهييه وقد توفى عام ١٩٤٤ • كان هذا الاخير موقنا باستقلال العقل الداخلى ، وبقدرة النفس على حيازة جميع القيم وعلى ادراك الله تعالى ، دون أن تضطر فى ذلك

(1) Thèmes p. 19-20.
(2) p. 21

الى الخروج عن ذاتها وتهديد استقلالها الداخلى. الا أن التحليلات المعاصرة لاحوال المعرفة والعواطف دلت على أن التعدى «transcendance»[1] أو خروج النفس عن ذاتها ونطاقها ، هو فى أصل النفس ، ظاهر فى الادراك الحسى ، فى الحب والكراهية ، فى الصلاة والعبادة .

وبالجملة فحال الفلسفة اليوم غير حالها بالامس ، ولو رجع فيلسوف توفى من خمسين سنة الى الحياة والتفلسف ، وجب عليه ابتداء كل شىء من جديد . وأغرب الامور أن الاستاذ برهييه كان عائشا وفيلسوفا من خمسين سنة أو أكثر . وكان فى بداية تفكيره مسايرا لنزعات عصره ، مرتابا فى قيمة الفلسفات الجديدة الناشئة . ولكن سرعان مارأيناه فى العشرين سنة الاخيرة من حياته ، يراجع مواقفه الواحد بعد الآخر ، وسرعان مارأيناه يعجب بطرق ومناهج لم تدخل لفكره فى حسبان ، ويسلم بنتائج كان أبعد الناس عن التسليم بها . ولم يكن مناقضا لنفسه فى ذلك ، بل كان دائبا على تحقيق رأى الاغريق فى الفلسفة ، وهو أنها حياة قبل أن تكون فكرا أو نظرا .

نجيب بلدى

(1) *Thèmes* p. 53-54; 58.